

الرومانسية وأشراتها في شعر الشريف الرضي

عباس عرب^{١*}، أحمد خيفي زاده^٢

١. أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة فردوسي، مشهد
٢. طالب دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة فردوسي، مشهد

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٥/١٠/٢٨ : تاريخ القبول: ٢٠١٦/٢/٢)

الملخص

تناقشُ هذه المقالةُ شعرَ الشريف الرضي من منطلق الأسس والأصول الرومانسية في الشعر وإن كان الشريف الرضي قد عاش قبل ظهور المذهب الرومانسي بقرونٍ لكن يبدو أنّ روحه الشاعرة تفتت ببعض ألحان الحبّ الرومانسي، وهذا ما جعل الكثير من الشعراء الرومانسيين الأوائل يتأثرون بشعره ويرونه مصدراً ملهماً من مصادر رومانسيتهم فظلوا يعكسون أثره في جزءٍ غير قليلٍ من إنتاجهم الشعري. وهذا هو ما حتّنا على أن نتتبّع أثرَ الرومانسية في شعره. وقد إعتمدت المقالةُ ذكرَ أشهرِ الاصولِ الرومانسية الغربية وتطبيقها على نماذج من شعره. ينصبُّ تركيزُ هذه المقالة على العاطفة، والخيال الشعري، وقضية الوحدة العضوية والهجرة والإغتراب، واللجوء إلى الطّبيعة، والحبّ في شعر الشريف الرضي. إنّ أهمية المقالة تنشأ عن ضرورة تقييم الشعر القديم تقييماً جديداً والمحاولة لكشف علاقة القديم بالجديد فكما قلنا أنّ بعضَ شعراء الرومانسية الأولى في الشعر العربي المعاصر تأثروا بالشريف الرضي. وقد اعتمدنا منهج التحليل والتبيين وحاولنا أن نطبّق أصول المذهب الرومانسي على شعر الشريف الرضي ونوفّق بينهما.

الكلمات الرئيسية

الشريف الرضي، الرومانسية، الحجازيات، شعر الغزل، الحزن والإغتراب.

مقدمة

تميز غزلُ الشَّريف الرضيِّ وخاصةً حجازياته منذ القدم عند العرب بنظرتها المختلفة إلى الحبِّ والحبيب فالشريف الرضي لم يكن من الشعراء الذين تلذَّههم النظرة المادية إلى الحبِّ باحاول جاهداً أن يكون شعره قيماً روحية خالصة وعفيفة تجاه المحبوب. وهذا ما جعل بعضُ أبرز شعراء الرومانسية الأولى العرب يستشفون من شعره بعض أذنب النبرات الذاتية والوجدانية كما نجد مثلاً عند الدكتور إبراهيم ناجي الذي ظلَّ يعكس أثر شعره في بعض قصائده.

ولكن هل يصحُّ أن نطلق على ما في شعر الشريف الرضي من السمات الوجدانية الصافية والمؤثرة عنوان الرومانسية رغم أن الرومانسية مذهبٌ أدبي حديث؟ والواقع أن الصلة ليست منقطعة دائماً في الأدب بين القديم والحديث. ولهذا يدعي الكثير من النقاد المعاصرين المتخصصين في الأدب العربي أن الشعر العربي القديم يمثل في مختلف عصوره بعض خصائص المدارس الأدبية المعاصرة وخاصة المدرسة الرومانسية. من أكبر هؤلاء النقاد نستطيع ذكر المستشرق جب «Gibb» الذي يقول إن الصيغة الغالبة على الأدب العربي هي الرومانسية حيث يقول: «إن أدب العرب أدب رومانتيكي فهو في أغلب نماذجه يغلب عليه الخيال والتصوير» (ضيف، دت: ١٥).

إذاً المشكلة هي المصطلحات وإلا فروح الأدب القديم قد لا تختلف في بعض الأحيان عن الأدب الحديث خاصة في المدرسة الكلاسيكية والرومانسية قبل نشأة الشعر الحر وقصيدة النثر فإذا أطلقنا المصطلحات الحديثة على الظواهر الفنية القديمة فذلك من باب التطبيق وليس إدعاء وجود النزعة الحداثيوية بمصطلحاتها في الأدب القديم. يعترف بذلك شيخ الحداثيين العرب ويقول أن قراءة الشعر الفرنسي الحديث هي التي دلته على حداثة الشعر العربي القديم عند شعراء كأبي نؤاس وأبي تمام وأن دراسة النقد الأدبي الفرنسي الحديث هو الذي دلته على حداثة النظرة النقدية عند نقاد عرب كالجرجاني لكن دون أن تتشابه المصطلحات بالطبع. كما حاول أدونيس أيضاً في كتابه الثابت والمتحول يطبق بعض اصول المذاهب الرومانسي على شعر كثير عزة (أدونيس، ٢٠٠٦: ٣٠١/١).

فموضوع المقالة إذاً يتمحور حول الشعر الشَّريف الرضي ومدى انطباق المبادئ الرومانسية عليه محاولة إثبات بعض الخصائص الرومانسية لشعره بدرجات مختلفة من الإنطباق.. ونرى من الواجب علينا هنا ان نوضح عنوان المقالة فقد يكون غامضاً او عجيباً بعض الشيء

لوجود كلمة «أشراطها» فيه وهي بمعنى العلامات (الرازي، ٢٠٠١: مادة شرط). وقد أخذناها من القرآن الكريم حيث يتكلم عن القيامة وعلاماتها وقرب وقوعها ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ (محمد/١٨).

هدف المقالة هو الكشف عن مدى انطباق الاصول الرومانسية على شعر الشريف الرضي الذي اتخذ عددٌ غير قليل من شعراء الرومانسية شعره أسوة ونموذجاً للإبداع الشعري المتألق. والفرضية التي تنطلق منها هذه المقالة يمكن أن يصاغ بالصورة التالية وهو هل يمكن أن يعتر شعر الشريف الرضي مصدراً الرومانسية وهل تنطبق عليه الأصول الرومانسية؟ وأما بالنسبة لخلفية البحث فلم نر كتاباً أو مقالة تتكلم عن الرومانسية في الشعر الرضي ويحاول تطبيق أصولها على شعره مطابقةً تامةً لكن أشارت الكثير من الدراسات إلى تأثر بعض أكبر شعراء الرومانسية الأولى في الشعر العربي الحديث بشعر الشريف الرضي وأعجابهم به دون محاولة التطبيق أو الكشف عن هذه التأثيرات فيما ناقشت بعض الدراسات عن الشريف الرضي بعض الميزات أو الجوانب الرومانسية في شعره دون أن يجمعوا بينها للكشف عن مدى رومانسيته فقد تكلم الدكتور زكي مبارك مثلاً في كتابه «عبقرية الشريف الرضي» عن بعض جوانب الحب الخالص كتجربة شعرية جديدة، وتكلم عزيز السيد جاسم في كتابه «الإغتراب في شعر الشريف الرضي» عن الشعور بالغربة في شعره، والإغتراب كما نعلم من أهم خصائص الشعر الرومانسي. وناقش عبداللطيف عمران في كتابه «شعر الشريف الرضي ومنطلقاته الفكرية» بعض جوانب الخيال، والوحدة العضوية في شعره. والكتب والمقالات على ذلك كثيرة لا يمكن حصرها وعدّها في هذا المقال.

التعريف بالشريف الرضي

هو أبو الحسن محمد بن الطاهر أبي أحمد الحسين من كبار شعراء العرب في العصر العباسي يرجع نسبه إلى الإمام الصادق عليه السلام (ضيف، ١٤٢٨: ٢٧١). وُلِدَ هذا الشاعر عام ٣٥٩ق وصار هو وأخوه الشريف المرتضى الذي يكبره بأربع سنوات من أكبر علماء الشيعة فقد كان لهما براعة فائقة في الصِّرف، والنحو، واللغة، والفقه، والتفسير، والتأريخ، والعقائد الإمامية والإسلامية ولهما تأليفات قيمة في هذه المجالات يمكن أن نشير إلى كتاب «تنزيه الأنبياء» للشريف المرتضى وكتاب «حقائق التأويل في متشابه التنزيل» للشريف الرضي في العلوم الإسلامية والقرآنية. كما اشتهر الشريف الرضي بجمعه لخطب وكتب وحكم أمير

المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في كتاب «نهج البلاغة» الذي يعدّ ذخراً أدبياً ومعرفياً إسلامياً.

كان والد الشّريف الرّضي يتمتّع بمكانةٍ رفيعةٍ لدى الخلفاء العباسيين في عهده وعند الولاة البويهيين فوّلّي مسؤوليات عديدة كالقضاء وإمارة الحجّ. وقد أعتقل والده عام ٩٧٩ق وأقيل عن هذه المسؤوليات وحُبِس بقلعة فارس وكان الشّريف الرضي آنذاك صبيّاً فظلاً يتألّم لهذا الأمر حتّى اطلاق سراحه على يد البويهيين فظلاً الشاعراً بمدحهم حتّى نال لديهم منزلة رفيعةً فوّلّي ما كان قد تولّاه أبوه من المسؤوليات وهو حي.

وإذا أردنا أن نتكلّم عن أفضل ما أنتجه الشّريف الرّضي من الشعر فعليّنا أن نذكر حجازياته وغزلياته الذي تمثّل طرازاً جديداً من النظر إلى الحبّ بنزعة تشبه أحياناً النزعة الصوفية إذ يتفاني الشّاعر في حبيبه حبّاً عفيفاً فيلين أسلوبه دون أن يبلغ الركاكة والضعف، ويتمتّع بالجزالة دون أن يفقد رفته الغزلية ورنة نغمات الحبّ الخالص للمحبوب.

الرومانسية

مدرسةٌ ظهرت في القرن الثامن عشر بإروبا ودعت إلى الاعتماد على النفس والوجدان في انشاء النصوص الادبية وكانت حصيلة طفرة في فكر البشر ومفاهيمه السياسية كالثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ التي قوّضت النظام الملكي الاقطاعي وحملت مبادئ الحرية والديمقراطية (قصاب، ٢٠٠٧: ٣٧).

كانت الرومانسية محاولةً للإبتعاد عن النزعة التقليدية في الأدب الأرسطراطي والنزوع نحو الأدب الذاتي الذي يعبرُ بصدق عن عواطف الشاعر أو الكاتب. فهي اقتران للعواطف والرقّة والخيال المبدع والبحث الدؤوب عن الحبّ الصادق، ومظاهر الجمال في العالم.

وللرومانسية أصول يمكن أن نذكر منها:

١. الاهتمام الرومانسية بالعاطفة والخيال واستبدال القلب بالعقل
٢. عرض مظاهر الشر او القبح والرذيلة إلى جانب الخير
٣. الاهتمام بالشعر الغنائي
٤. التعبير عن الذات بدل الاهداف الخلقية والاجتماعية والمناسبات
٥. الهجرة والاعتراب، والهروب من شر المجتمع
٦. اللجوء إلى الطبيعة

أصول الرومانسية في شعر الرضي

الاهتمام بالعاطفة:

اعتمد المذهب الرومانسي في أدبه على التعبير عن العواطف وخواالج نفس الأديب واعتبر القلب منبع الإلهام وموطن الشعور ومكان الضمير والهادئ الذي لا يخطئ (قصاب، ٢٠٠٥: ٤٢). على عكس الكلاسيكية التي كانت تعتبر العقل أساس الشعر وكانت غايتها طلب الحقيقة في الأدب عندما كانت غاية الرومانسيين التعبير عن الجمال لا طلب الحقيقة. ولو درسنا شعر الشريف الرضي على ضوء هذا المبدأ لوجدنا أنه قد أخلص له كل الأخلص فشعره تعبيراً عن خواالج النفس حيث نراه في معظم أشعاره وخاصةً في شعره الغزلي يعبر عن ذاته (عمران، ٢٠٠٠: ٢٣٢). وحجازياته هي في ذروة الرومانسية من حيث رقتها وسمو عواطفها.

عواطفه الشعرية والغزلية عواطف سامية وعفيفة فكان يرتفع في نسيبه من التبذل والإسفاف وكانت تعابيره العاطفية نابعة عن روح صافية تعي ما هو الحب ولا تخلط بينه وبين الانهماك بالشهوات زعماً منها بأنها هي الحب كما كان يزعم الشعراء الإباحيون ويروجون لذلك بشعرهم، فليس في شعره تشبيب بالنساء، او تغزل صريح مباشر، بل هو نسيب رقيق يركز فيه على تصوير حالاته النفسية ويرمز من عفته إلى محبوبته بمشابهاتها مثل ظبية البان والغزال والسرحة وغير ذلك من المدلولات (ابوعليوي، ١٩٨٦: ٥١١). وهذا ما يميز غزل الرضي عن الكثير من شعراء الغزل إذ أكثر من التكلّم عن الصفات الروحية والقيم الأخلاقية. وجمال المحبوب عنده لا ينفك عن جمال الكون وهذه ربّما تنشأ عن نظرتة الحكمية والدينية إلى الحياة والحب والكرامة الإنسانية والقيم المعنوية. فغزل الرضي ليس غزلاً يصف الجسم وجماله وأنه ليس غزلاً مادياً بل أنه غزل الروح والمعنوية. فالقارئ والسامع لشعره يريان هذه الميزات بوضوح ودون أي عناء فهو إن تكلم عن لقاء محبوبته سرعان ما يلجأ إلى حصن العقّة ويتكلّم عنها ويصرّ على تأكيدها (عابدين، ١٩٩٩: ٢٦٠). كأنها يريد أن يتفرق من تهمة أُلصقت به او فكر قاصر لا يرى في الحب إلّا ما يريه هو، فمثلاً نرى الإصرار بوضوح في قوله:

قدرتُ منها بلا رقبى ولا حذرٍ	على الذي نام عن ليلى ولم أنم
بتنا ضجيعين في ثوبي هوى وتقى	يلفنا الشوق من فرع إلى قدم
وأمست الريح كالغيري تجاذبنا	على الكثيب فضول الريب واللّم
يشي بنا الطي احياناً وأونةً	يضيتنا البرق مجتازاً على اضم

وبيننا عفةً بايعتها بيدي
على الوفاء بها والرعى للذمم
(الرضي، ١٩٩٩: ٢٣١/٢-٢٣٢)

فالشاعرُ كلُّهُ شوقٌ من رأسه ال قدمه، ورغم أنه يقدر منها بلا رقبى ولا حذرٍ لكنَّه يعف
في ثوب يجمع بين الهوى والتقى. والشاعرُ عاشقٌ يخافُ من كلِّ شيءٍ أن يشي بحبه فيرى
على الكتيب فضول الريب ويرى الريح غيري تجاذبهما وغير ذلك من الأمور والأحداث إلا أن
الشاعر ثابتٌ في حبه العفيف.

وقد بلغ شعره من حيث التعبير العاطفي والفني الجميل الذروة فجاء شعره عاطفةً في
عاطفة ورقّة في رقّة، يكشف لنا عن ذات تذوّبُ شعراً وحناناً فهي عاشقة طيلة عمرها.
وكنتُ أظنُّ الشوقَ للبعدِ وحدهُ ولم أدِرِ أنّ الشوقَ للبعدِ والقُربِ
(الرضي، ١٩٩٩: ٣٢٩/١)

ويرى أن الشوق دائمى لا ينفك عن العاشق لا في حالة الوصل ولا في حالة البعد. وهي
نفسٌ توغلُ في الحبِّ فيصلُ بها الأمرُ إلى الوله وعدم السلوان وعدم التعلُّل بشيءٍ.
وللّه قلبٌ لا يبُلُّ غلياًهُ وصالٌ، ولا يلهيه عن خله وعدُّ
(الرضي، ١٩٩٩: ٣٨٥/١)

ويقول أيضاً لمحبوبته:

يا ريمَ ذا الأجرع يرعى به
هناك شرب الدمع من ناظري
أنت على البعدِ همومي إذا
لا أتبعُ القلبَ إلى غيركم
ثمّارَ قلبي ببدل الرطبِ
يا مشرقى بالبارد العذبِ
غبتَ وأشجاني على القربِ
عيني لكم عينٌ على قلبي
(الرضي، ١٩٩٩: ٢٤٨/١)

فالشاعر لا يفتُرُ ولههُ إذ المحبوب يرى ثمار قلبه لأنّه دائماً لا يبارح حلم الحبيب على القرب
والبعد فهو أشجان الشاعر الدائمة وهو الذي يشرب دموعه ويشرقه بالماء البارد العذب لكن الشاعر
رغم كلِّ هذا وفي لا يتبع القلبَ إلى غير حبيبه وأن فضحته عيناه بالدموع وكانت عيناً على قلبه.
وللشاعر الكثير من المقطوعات والقصائد الرومانسية الجميلة فهي غزلٌ بحت وعواطفٌ
صادقة لمحَبِّ حقيقي لا يعيشُ إلنا بالحبِّ. ولا نريدُ أن نطيلَ الكلام عن الجانب العاطفي
والغزلي الجميل في شعر الشريف الرضي إذ هو واضحٌ لكلِّ من قرأ شعره.

الخيال في شعر الشريف الرضي

الخيال من أهم العناصر الأدبية في النصّ الأدبي إذ به يحاول الأديب أن ينتصر لأدبه ويحقق الغاية من شعره وأدبه وهي إثارة العاطفة في القارئ أو المستمع حتى ينفعل ويتأثراً بالموقف كما انفعلاً وتأثراً به هو. فالخيال هو الأداة اللازمة لإثارة العاطفة (الخفاجي، ١٩٩٥: ٥٣). ولا بد لكلّ أدب أن يتسم به وهو قديمٌ بقدم الأدب لكنّ الإقبال عليه والإكثار منه في الأدب والشعر مختلف جداً بين الأدباء حسب اتجاهاتهم الأدبية واختلافهم في العواطف والأحاسيس الأدبية. فمنهم من رقت عواطفه وكثرت وظرفته أحيته ومنهم من انهمك في الحكمة أو في الملاحم أو في الوصف وغير ذلك، فاختلف عنصر الخيال في أدبهم حسب اختلاف اتجاهاتهم الأدبية.

ازداد التأكيد على دور الخيال في الأدب في المذهب الرومانسي وأدب الرومانسيين حيث كان أدبهم أدباً عاطفياً يعتمد إلى حد كبير على الخيال. وهذا الإهتمام قد ظهر أيضاً في الأدب العربي القديم حيث شغلت قيمة الخيال في نظم الشعر فكر نقاد العرب. فالنقد الأدبي في عصر الشريف الرضي كان مهتماً أي ما اهتمام بأثر الخيال في العملية الشعرية حتى قيل أنّ النقد الشعري عند أغلب نقاد القرن الرابع يرجع إلى الخيال (عمران، ٢٠٠٠: ٣٢٥).

إن البيئّة الأدبية والنقد الأدبي في عهد الرضي بالإضافة إلى شاعريته الفياضة، قد هيئت لخياله الخصب أن ينمو. فالنقد الأدبي خير موجه ومرشد للأديب، فكانت الظروف مؤاتية لأن يحلّ الخيال محلاً رومانسياً في أدبه.

لقد تميز شعر الشريف الرضي بالخيال الخصب وقد كان من أهم شعراء الطبع والبيدهة الذين ظهر أثر الخيال في شعرهم ويمكننا أن نعدّ هذا الخيال من نتائج طبيعته الشاعرة وكثرة مشاغله في الحياة من مظالم، ونقابة وإمارة الحجّ (عمران، ٢٠٠٠: ٣٢١). كما لكثرة مطالعته الأدبية والعلمية اثروا في هذا الأمر، كتأليفه نهج البلاغة وحسن اختياره من كلام الإمام علي عليه السلام وما في هذا الكتاب من خيال نابضٍ ووثاب. الخيال في شعر الشريف الرضي يظهر في كلّ أشعاره، في مدحه وراثته وغزله ووصفه. هذا نموذج من شعره في رثاء أمّه:

ابيك لو نقع الغليل بكائي	واقول لو ذهب المقال بدائي
واعوذ بالصبر الجميل تعزياً	لو كان بالصبر الجميل عزائي
طوراً تكاثرني الدموع وتارة	أوي إلى أكرومي وتي وحيائي
كم عبرة مؤهتها بأناملي	وستررتها متجملاً بردائي

أبدي التجلّد للعدوّ ولو دري بتمللي لقد اشتهى أعدائي
ماكنتُ أذخرُ في فداك رغبةً لو كان يرجعُ ميتٌ بفداءٍ
لو كان يدفعُ ذا الحمامُ بقوةٍ لتكدّست عصبٌ وراءَ لوائِي

(الرضي، ١٩٩٩: ٧٣/١)

فالصورة جميلة إذ يعوذ الشاعرُ بالصورة فلا يجدُ عزائه به، فيعود إلى حياته وأكرومته لكنه لا يستطيع أن يغلب دموعه فتتبارح الحزن في داخله أقوى من كل شعور آخر فيحاول أن يموت عبراته ويستترها بالتجمل بردائه ثم يقول لو كانت الفدية تنفع الميت لفاها بما أغلى ما عنده ولو كانت القوة تدفع الموت لتكدّست عصب وراء لواء عزيمته في دفع الموت.

إن انصباب دموع الشاعر بغزارة وانقطاعها لفترة وجيزة ثم العودة إلى البكاء، وتمويه الدموع بالأنامل وسترها بالرداء وغيرها من الصور كلها صور حركية تسعى من أجل تصوير ابن بارٍ يفقد والدته العزيزة ولا طاقة له بالصبر الذي لا سبيل له غيره. وقد وفق الشاعر في تصوير نفسه يوم فقد أمه بأفضل طريقة.

لكن الخيال الشعري عند الشريف الرضي كما نرى في هذه الأبيات قد لا يمتد ليشكل صورة فنية واحدة. فهو إن صح القول يصنع عدة صور شعرية تصنع في نهاية المطاف مجموعة من الصور الفنية الجميلة المترابطة شعورياً ترابطاً قوياً والتي تعكس ذاته، كذلك الأمر في قصائده الأخرى، وهي ظاهرة نستطيع أن نسميها بالتفجرات الخيالية مثل قصيدته في رثاء أبي إسحاق الصابي إذ مزجها بمشاعر الحزن وصور خيالية تعبر عن خوالج نفسه وحزنه على موت الصابي:

أرأيت من حملوا على الأعوادِ أرأيت كيف خبا ضياء النّادي
جبلٌ هوى لو خرّ في البحر اغتدى من وقعته متتابع الأزيادِ
ما كنت أعلمُ قبل حطّك في الثرى أن الثرى يعلو على الأطوادِ

(الرضي، ١٩٩٩: ٢٥٦/٢)

في الحقيقة أن تخيل صورة جبلٍ يخرُّ في البحر ويجعله متتابع الأزياد صورة رائعة إذا صورناها بمخيلتنا كأننا نراها أمام أعيننا، وكذلك ان تتصور ان يدفنَ جبل في الثرى ويجعل في القبر لكن هاتين الصورتين بالتالي تظل طغيانا خياليا رائعا لما في البيت الاول من السكون والوجوم ازاء حمل جثمان الصابي على ايدي المشيعين وانطفاء ضيائه الذي كان

يشع علماً وادباً. وهذا ما نقصده بالتفجرات الخيالية في شعر الشريف الرضي إذ يفاجئنا بصورة جميلة بعد هدوء عاطفي حزين يسيطر على القصيدة.

كذلك في غزل الشريف الرضي نرى صوراً فنية تعبر عن الحب الطاهر والصادق وعن مشاعر بلغت مستوى فني ناضج ورائع تمزج الحب بالطهارة، وتصنع لوحات فنية جميلة تدل على ذات فنية صافية.

الوحدة العضوية في قصائد الشريف الرضي

اتسم أدب الرومانسيين بظاهرة أخرى تسمى الوحدة العضوية في القصيدة إذ كان قبل المذهب الرومانسي يعد كل بيت في القصيدة أو كل جزء منها مستقلاً على حده، لكن اختلف الوضع بعد ظهور الرومانسية وطالب الرومانسيون بأن تكون القصيدة كالجسد الواحد متناسقة ومرتبطة ببعضها البعض (غنيمي هلال، الأدب المقارن: ٢٨٣).

الشريف الرضي قد سبق كل الرومانسيين العرب في هذا المجال فكان جزء كبير من قصائده الغزلية منسجمة ذات وحدة عضوية إذ نرى فيها نمواً ناشئاً عن تأثير قوة داخلية مركزية تعمل لغاية معينة هي غرض القصيدة وموضوعها أو غرض شعره عامة وكانت لتلك دلائل هامة مثل الإيقاع والصورة والخيال في تحقيق وحدة القصيدة التي هي المثل الأعلى لنشاط الخيال الفني (عمران، ٢٠٠٠: ٢٣٣). تتصل الوحدة العضوية في شعره بالوحدة الموضوعية اتصالاً مباشراً فإن كان موضوع القصيدة غزلاً نرى الوحدة العضوية بوضوح ودرجة عالية من الانسجام وعندما يكون موضوع القصيدة مدحاً أو فخراً أو غيرهما قد نشعر بانسجام أقل في الوحدة العضوية وقد نستطيع أن نبرر هذا الأمر بقولنا أن الأصل في المذهب الرومانسي هي نبذ شعر المناسبات والتوجه إلى شعر الذات، والمدح والفخر والثناء كلها من شعر المناسبات وطبيعة الشريف الرضي لا تتناسب مع هذه الأشعار كثيراً وإن أجاد هو فيها بمعان جميلة وصاغ قصائد محبوكة. وهذا الأمر يدل على جانب من جوانب شعره الرومانسي. نستطيع أن نشاهد من خلال ما جئنا به من النماذج في هذا المقال أن نرى التماسك والوحدة العضوية في شعره.

الهجرة والاعتراب:

مجد الرومانسيون الألم والحزن وتغنوا بمشاعر اليأس والخيبة وأسرفوا في التشاؤم والإحساس بالغربة وتميزت أعمالهم الفنية بالسوداوية والحزن والكآبة (قصاب، ٢٠٠٥: ٤٣؛

الاصفر، ١٩٩٩: ٥٦-٥٧). وقد تكلمنا عن الغزل الحزين عند الشريف الرضي مسبقاً ولكن لا ينتهي الأمر إلى هنا فكما قلنا ان الرومانسيين أسرفوا في هذا الحزن وقد تبدل فيهم إلى يأسٍ وتشاؤمٍ ومن ثمَّ احسَّوا بالغربة ورأوا ان عليهم أن يهاجروا من مجتمعهم لما فيه من الشرورُ وصل بهم الأمرُ في بعض الأحيان إلى أن هربوا من انفسهم.

أدَّت هذه الأحاسيسُ إلى أن يشكوا الدهرَ والزمانَ وينظروا اليهما بعين العدوِّ المُجاهرِ بعدائه ونلاحظ هذا الجانب أيضاً في شعر الشريف الرضي كقوله:

زمانِي كالعدوِّ يريدُ قتلي فغالطني وقال أنا الحبيبُ
وأنكرني فعرفني اليه لظى الأنفاس والنظرُ المريبُ

(الرضي، ١٩٩٩: ٢٥٤/١)

فهو يرى أن الدهر عدوٌّ يظهر بهيئة الحبيب، فيمتلئه بشخصٍ لم يعرفه اليه سوى لظى أنفاسه ونظره المريب. فالشاعر مغترب لا يرى في الزمن دو يرما يدلُّ إلى الثقة. ويرى أن الدهر لا يرافُ به ويداه كالعدوِّ الذي يريدُ قتله ويمرُّ عليه الخطوب متعمداً. ومحاولاته في هذا السبيل مستمرة لا تتوقف لإلحاق الأضرار به.

تُجاذبني يدُ الأيامِ نفسي ويوشك أن يكون لها الغلابُ
وتغدرُ بي الأقاربُ والأداني فلا عجبُ إذا غدر الصَّحابُ
نهضتُ وقد قعدنَ الليالي فلا خيلُ اعنَّ ولا ركابُ
وما ذنبي اذا اتَّقَت خطوبُ مغالبيَّةٌ وأيامُ غضابُ

(الرضي، ١٩٩٩: ١٨٦/١)

هذه هي السوداوية وهذا هو الاغتراب. سوداويةٌ واغترابٌ في سبيلهما إلى الإزدياد لكثرة ما يلاقي الشاعر من مصائب وكذلك لقلَّة حظِّه.

شرق من الحدثان لو يرمي به ذا الماء من المِ اغصَّ الماءَ
أحبابي الأذنين كم ألقى بكم داءٌ يمضُّ فلا أدوي الداءَ
أحيا إخاءكم الممات وغيركم جربتهم فتكلتهم أحياءَ

(الرضي، ١٩٩٩: ٨٢/١)

فيغصُّ الشاعرُ بحدثان الدهر الذي يغصُّ الماء العذب بها لما فيها من الكدر. ولا يلقى الشاعر من احبابه أَّا الداءَ فلا يرى فرقاً بين الحي والميت بين ذلك فهو غريب لا يشعر تجاه كلِّ أَّا بالغربة التي تحيط به في كلِّ جوانب حياته.

أنه مغتربٌ لا يرى من يستحقُّ أن يحبهُ في الكون فلا احد يحبهُ ولا صديقٌ لم يحمل
الحقدَ، وهي قَمَّةُ التشاؤمِ، والإغترابِ.
لأي حبيبٍ يحسنُ الرأي والودُ
وأكثر هذا الناسِ ليس له عهدُ
أكلٌ قريبٍ لي بعيدٌ بوَدّه
وكل صديقٍ بين أضلعه حقدُ
(السيد جاسم، د.ت: ٩٧)

وهذا حاله مع أصدقائه وحاله مع الأيام صحابٌ يكونون معه في الطمع ويفدرون به عند الشدة.
قلَّ الصَّحابُ فإن ظنَّ
تُ بنعمةٍ كُتُّبَ الصَّحابُ
من لي به سمحاً إذا
صرفت من القومِ الوطابُ
من لي به يا دهرُ
والأيام كالسحابة غضابُ
(مبارك، د.ت: ٥-٤/٢)

ولا يكون حالك أسوء من كلِّ هذا إلَّا عندما تظنُّ الأيام والليالي هما يبيدان لك العداوة
ويكيدان لك فلا يبقى لك شيءٌ إلَّا وهما يصارعانك عليه فلا غنى ولا شباب ولا صديق.
قعدتُ بمدرجة الننادياتِ
يمرُّ الزمانُ على الخطوبِ
على الهمِّ أنفق شرحَ الشبابِ
وأعطي المنايا حبيباً حبيباً
(الرضي، ١٩٩٩: ٢٣٢/١)

ومثل هذه النماذج كثيرة في ديوانه هي لا تُعدُّ بكثرتها بل تُعدُّ بأن الشاعر قد جعلها فلسفةً
ونظر من خلالها إلى العالم فكأنه تشاءمَ وان كانت روح المثابرة والجدِّ حية كلِّ الحياة في قصائده.
اللجوء إلى الطبيعة:

اندمج الرومانسيون بالطبيعة وشخصوها ورأوا فيها الصدر الرؤوم الذي ينبغي أن يرتمي
الانسان فيه ليستعيد صفاءً وكانوا ينزعون إلى خوارق الطبيعة وأعاجيبها (عتيق، د.ت: ٢٤٨؛
الاصفر، ١٩٩٩: ٥٦). أكثر الرومانسيون من ذكر الطبيعة وقد جعلوها ذات روح وكأنها حية تفهم
آلام البشر وتستطيع أن تسليه كما أنّها رمزٌ للهروب من المجتمع الذي فروا منه وقد ثاروا على
اوضاعه لما فيها من الظلم والانشغال بالحياة اليومية وعدم الإكتراث بالروح الإنسانية.

والقارئ بل وحتى المتصفح لديوان الشريف الرضي سينتبه إلى هذا الامر في شعره أنه
كذلك لم يذكر الطبيعة لأنها تقع حوله «طبقاً للنظرية التي ترى الاديب وأدبه في بيئته» بل
هو يعيشها ويهيم بها ويصفها بوصفٍ جميلٍ يفوق وصف الرومانسيين المعاصرين لها. إنّه

يحلُّ بها ومن ثمَّ هي تحلُّ بشعره لتكسبه رونق الحياة ونشاطها. اسمعه وهو يهنئ صديقاً له
بقدومه من سفر، وسمع وقع أقدام الطبيعة في شعره وجرى انفساسها وسكونها في آياته.

رأينا بوجهك نور اليقين	ن، حتَّى خلعنا ظلام الريب
وما زلتَ تمسحُ خدَّ الصباح	وترحم قلب الظلام الأشيب
بمطرورة الصدرِ خفاقة	تطير مجاذيقها كالغذِّب
تعانقك الريحُ في صدرها	ويشتاقك الماءُ حتَّى يثيب
تمرُّ بشخصك مرَّ الجيادِ	وتسري برحلك سير النَّجيب

(الرضي، ١٩٩٩: ١٦٥/١)

فترى تهلُّ وجه الزمان ومسح خدَّ الصباح وترحم قلب الظلام وتعانق الريح وحنان الماء
ووثبته، كلُّها تتفق مع احساس الشاعر الأمر الذي يجعلها وثابةً فيخفق قلب القارئ والسامع
لها. ويقول في قصيدة أخرى:

سمائي مذهبة بالبروق	وأرضي مفضضةً بالحباب
وروضي مطارفةً غضةً	تطرز أطرافها بالذَّهاب
وليلٌ ترى الفجر في عطفه	كما شاب بعض جناح الغراب
يفارُ الظلامُ على شمسه	إلى أن يواريهما بالحجاب
وتصقلُ الأنجمُ العاصفاتُ	إذا صَدِيت من غمود السحاب
وبرقُ ينفُضُ أطرافه	كما رمحت بلق خيل عراب
وماءٌ يضارعُ خيط السقاء	ويرمي به في وجوه الشعاب
تزعزعُ ريحُ الصَّبا متنه	كما لطم المزجُ خدَّ الشراب

(الرضي، ١٩٩٩: ١٠٣/١-١٠٤)

فالسما مذهباً بالبروق والروضُ مطارفةً غضةً والظلام يفار على الشمس، والعاصفت
تصقل الأنجم، والماء يضارع خيط السقاء ويرمي في وجه الشعاب، والريح تزعزع متن الماء،
وهذه هي انعكاس الطبيعة بحيويتها في شعره.

هذه المقطوعات تشبه إلى حد كبير مقطوعات الرومانسيين المعاصرين بل تفوقها أحياناً
بصفاء لغتها وخلوها من التكلف والتصنع في الأحاسيس. وقد أشار الدكتور زكي مبارك في
كتابه «عبقرية الشريف الرضي» إلى هذه الظاهرة في شعر الشريف الرضي بعدما نقل
الآبيات التالية:

كليني إلى ليلٍ كأنَّ نجومه
تغازلُ طرْفِي عن عيون الجأذِرِ
امرُ بدارٍ منك مشجوجة الثرى
بمجرى نسيم الأنسات الغرائرِ
تمرُّ عليها الريحُ وهي كأنَّها
تلفُّفٌ في اعطافه تلك المقاصرِ

ثم يعلِّق عليها «ألا ترون يا إدياء بغداد كيف يزعم شاعركم أنَّ للطبيعة أحاسيس؟ ألا ترون كيف يدَّعي أنَّ الرياح تمرُّ بتلك الدار فتتلقَّت إلى ما فيها من مقاصير؟ ليت الوقت يسمح بإسماعكم فقرات من كتاب «التصوِّف الاسلامي» لتروا بقوة المنطق أنَّ الشريف لم يكن عابثاً، وإنما كان يحس ما سيقوله انصار القول بوحدة الوجود بمئات السنين. وهل يعقلُ أنَّ تمرُّ الريح بالوادي الجديد، كما تمرُّ بالوادي الخصب؟ هل يعقلُ أنَّ تمرُّ النسمات بوجوه اهل البلادة كما تمرُّ بوجوه اهل القلوب؟ وهل اختلَّت الموازين في الدنيا حتَّى نصدِّق أنَّ الأرض التي تدوسها البهائم كالأرض التي تمشي عليها أقدام الدنيا» (مبارك، د.ت: ١٠٣/٢-١٠٤).

الاهتمام بشعر الحبِّ والإخلاص للمحبوب

من يقرأ شعر الشريف الرضي يجد روحه الشاعرة تسيل في وجدانية منقطعة النظير في طيات ديوانه ويجد شاعراً تغدَّى بالوجدانية والرفقة، شاعر يبحث عن الحبِّ بعفَّةٍ وطهارةٍ ويبتُّ ما في قلبه من الأحاسيس حتَّى كأنه يطارحنا قضاياها فيجعلنا نتبع خطاه وكأننا نتبع ساحراً جباراً. أخلص الشريف الرضي للحب في شعره كلَّ الاخلاص وهو في حديثه عن حبه لا يبدو لنا إلَّا رجلاً من جنس الهوى وعواطف الحبِّ إذ لا يمكننا أن نعبرَ عمَّا يقول عن نفسه في الحبِّ بقول غير هذا لما في شعره من خلوصٍ وإخلاص، خلوصٌ من كلِّ شيءٍ سوى الحبِّ وإخلاص غير موصوف له وهذا ما دعت إليه الرومانسية ايضاً فصار الحب عند الرومانسيين فضيلة بعد ما كان يعدُّه الكلاسيكيون هوى من الأهواء (غنيمي هلال، الرومانتيكية: ١٤١). هذا الحب نفسه عند الرضي

العالم في الدين والمعروف بحسن التدين، والايمان فلنستمع له قليلاً عندما يتكلَّم عن شوقه:

لو كان حرُّ الوجدِ يعقبُ بعده
برد الوصال غفرتَ ذاك لذاكا
لا بل شجيتَ بمن بيتُ مسلماً
خالي الضلوع، ولا يحسُّ شجاكا
إن يصبحوا صاحبين من خمر الهوى
فلقد سقوك من الغرام دراكا
يا ليت شغلك بالأسى أعداهمُ
اولا، فليبت فراغهم أعداكا
أهوى وذلاً في الهوى وطماعاً
ابداً، تعالَى اللهُ ما اشقاكا

(الرضي، ١٩٩٩: ٩٢/٢)

فالشاعرُ هنا يحرقُه حرُّ الوجدِ ولا يرى لبردِ الوصالِ من خبرٍ فهو يشجي بمن لا يحسُّ شجاءً، فهو يحبُّ حتّى الموت من لا ينشغلون بحبه كما انشغل هو بحبهم لكن لا مفرّاً للشاعر من الحبِّ فهو خلّق لما في هذا الحبِّ من الشقاء والذلّ.

إنّ في شعر الشريف الرضي إلى جانب المعاني الرفيعة والالفاظ الأنيقة، انسياباً يجري ويستمرُّ في كلّ آبيات القصيدة فتأتي الموسيقى ملائمة مع الأحاسيس الملقاة فتزيد القصيدة روعةً وجمالاً وتجعلها أكثر غنائية وهذا ما يميز الشعر الحبِّ عند الرضي حتّى كاد أن يكون فريداً من نوعه.

ما اكثر قصائده الرومانسية الجميلة التي تعبّر عن ذاته ووجدانه وتبثُّ ما فيها من الأشجان والأحزان وتبلغ مدى عالياً في الكمال والإساق فكانها نُسجت على يد فنّانٍ بارعٍ. إن لم تكن كبدي غداة وداعكم ذابت فاعلم أنّها ستدوبُ
دأء طلبتُ له الأساة فلم يكن الّا التعلّل بالدموع طيبُ
(الرضي، ١٩٩٩: ٢٥٢/١)

وهو شاعر يذوب من الفراق ولا يتعلّل الّا بالدموع التي قد تخفّف عنه فهي طبيبته. وذلك لفرط ما يلقاه جرّاء عواطفه الصادقة فإنّ قصائده في أغلبها تعبّر عن حبٍّ صادق وعاشق قد بلغ في العشق أعلى الرتب.

سوى نظري والعاشقون ضرورُ	عشقتُ ومالي يعلم الله حاجةً
سوى أنّ شعاري عليك نسيبُ	ومالي يا لمياء بالشعر طائلُ
أطاعك منّي قائمٌ وجنيبُ	أحبّك حبّاً لو جزيت ببعضه
ألا ربّ داءٍ لا يبراه طيبُ	وفي القلب داءٌ في يديك دواؤه
تضحك فيه البرق وهو قطوبُ	سرى لك من اوطانه كلّ عارضٍ
عليك، وأنواء الغمام تصوبُ	ولا زال خفاق النسيم مرقرباً

(الرضي، ١٩٩٩: ٢٤٣/١-٢٤٤)

وهذه القصيدة وغيرها من القصائد تمثّل ما لديه من براعة في بيان احساسه كما تدلّ على صدق العاطفة وقوتها عنده إذ لا يستطيع ان يصوغ الشاعر بعواطف غير صادقة ومزيّفة قصائد تبلغ هذا المدى في الروعة والجمال والقوّة والكمال. كذلك عندما يتعلّق الأمر بمعانيه فهي معانٍ تبعث السامع والقارئ على الانفعال الشديد بها فهو مثلاً ليس له من حبه

سوى النظر كما يقول في البيت الأول ثم يدعي في البيت الذي يليه أنه ليس له طائل بالشعر سوى أن تكون أشعاره نسبياً على من يهوي وهذه هي بدورها معانٍ مبتكرة وغاية في الرومانسية والرفقة وقد شاهدنا هذا الأمر بوضوح في سائر النماذج التي اتينا بها.

الغزل العاطفي الحزين

اتسم ادب الرومانسيين وخاصةً غزلهم بالحزن والسوداوية فهم يجترونها الآهات ويشكون مرارة فراق المحبوب في البعد والقرب ولا يشفي غليلهم وصالاً وإن تمنّوه وأطنبوا في الحديث عنه، فهو لا يلدّ لهم نتيجةً للحزن والمزاج السوداوي المسيطرين على كيانهم. أدب الرومانسيين أدب تفجّع ونواح وأعمالهم مفعمة بالأسى والحزن (ابوالشباب، ١٩٨٨: ٢٠١). اتسم أدب وغزل الشريف الرضي بهذه الميزات وقدم غزلاً مليئاً بالحزن في فراق الحبيب أو في لقاءه مع من يهوى. لقاء كلّه حبّ واشتياق وخالٍ من العبث والشهوات. إن غزل الشريف الرضي تميز عن غيره من الغزل العربي بغرائب من الأحاسيس والمشاعر وبمعانٍ طريفة تشوق العقول والأذواق (نورالدين، ١٩٩٠: ٨٦). وهذا ما يجعله رومانسياً مميزاً في الأحاسيس والمعاني وحتى في اللغة والموسيقى؛ إذ نراه دائماً يلائم في غزله بين هذه العناصر بأحسن ما يكون. فهو غزلٌ يستهوي القارئ والسامع رغم حزنه لأنه ينبع عن ضمير صادق وصاف. كيف يكون حاله في غياب الحبيب وهو يقول في الوصال:

إن نال منكم وصالاً زاده سقمأ كأنّ كلّ دواءٍ عنده داءُ

(الرضي، ١٩٩٩: ٩٨/١)

فهو لا يزيدنا الوصال إلا سقمأ حتى كأنّ كلّ دواءٍ هو داءٌ، غير أنه أيضاً لا يجد السلوى في فراق أحبته ولا يستطيع أن يمنع دمعهُ من الصبِّ فكأنّما الحزن عنده يأتي من أعماقٍ مجهولة:

هم خلّفوا دمعِي طليقاً وغادروا فؤادي على داء الغرام حببسا
طلاع الحشى لم يتركوا فيه فضلةً تضمّ جوى من بعدهم ورسبسا

(الرضي، ١٩٩٩: ٥٧٩/١)

وهو يحنّ إلى لقاء الحبيب كلّ يوم، وكلّ وقتٍ هو في البحث عنه، ولا يجد صبراً عندما يذكر الماضي وينفجر بكاءً ويبوح صمته ويتظلم قلبه.

احنُّ إلى لقاءك كلّ يومٍ وأسأل عن إيابك كلّ وقتٍ

واذكر ما مضى فيغيضُ صبري وتنفر عبرتي ويروح صمتي
ولي قلبٌ إذا ذكر التلاقي تظلم من يد البيّن المشتت
(الرضي، ١٩٩٩: ٢٨٧/١)

وهذا الحنين لا ينفك عنه ويدوم معه مادام.
وانّي لمجلوبٌ لي الشوقُ كلّما تنفّس شاك أو تألّم ذو وجدٍ
تعرض رسلُ الشوقِ والركبُ جاهدٌ فتوقظني من بين نوامهم وحدي
(الرضي، ١٩٩٩: ٤٣١/١)

وهذا حاله في بعد الاحباب حال من يجد بدءاً من الحب ولا سلواناً عنه. وهو كلّ حبٍّ ومرارة في هذه الأبيات إذ يقول:

سأصبرُ إنَّ الصبرَ مرٌّ عواقبُهُ الا ربّما لذت لقلبي عواقبُهُ
ولا بدّ أن نعطي على البعد دولةً فتأمنَ بيناً أو رقيباً نراقبُهُ
فلا قلب لي إلّا وانت حجابُهُ ولا سرّ لي إلّا وذكرك حاجبه
(الرضي، ١٩٩٩: ٢٥٣/١)

إنّ صبر الشّاعر هنا صبر عاشقٍ ولوع ربّما لم نجد له نظيراً في المرارة عند شعراء العرب قبل الشريف الرضي رغم بكائهم على ديار الحبيب والحنين اليه، لكن الرضي يحبّ حباً قد ينحى منحى صوفياً فالحبّ عنده يقترب بالصبر والحرقة، ولا فرق بين الفراق والوصال. وهذا هو اختلاط الحب والحنين وهذا هو الغزل الحزين الذي دعت اليه الرومانسية وبتت معظم أسسها عليه. كأنّ الشريف الرضي يريد أن يلبي دعوة الرومانسيين إلى ادب هكذا فيسيل ذاتية مرموقة بقصائده حتى تصبح نماذج فريدة من الشعر الوجداني الحزين.

حجازيات الشريف الرضي

أشهر ما اشتهر من شعر الشريف الرضي هي حجازياته التي بلغت الذروة في التعبير الصادق عن عواطفه في حبه. وسُميت غزلياته بالحجازيات لأنّها كثيرها قيل في مواسم الحجّ أو في ذكرها عندما كان يتولّى إمارة الحجّ (الفاخوري، ١٣٨٢: ٨٢١/١).

وهي ذات قيمة أدبية وفنية عالية لما فيها من تمثيل لوجدان صاحبها فهي تعبيرٌ عن أمانيه والتباغاته واشواقه وعبراته وخفقات فؤاده وكذلك لما في الفاظها من نعومة ورقة قد تكون تمثيلاً مباشراً عن صفاء ورقة وجدانه كما انها تأتي في انسجام باهر قد يكون ايضاً معبراً

عن صدقه في الحبّ وعن نضج عواطفه وأحاسيسه نضجٌ سبّب بلوغاً فنياً ووحدةً في النسيج في شعره وجعل أسلوبه حافلاً بالسلاسة والعذوبة والموسيقى الملائمة مع تلك الأحاسيس.

ولقد كان القدماء يضربون الأمثال بقصائده الحجازيات ويرون أنه يلزم على المتأدب أن يحفظ حجازياته لتُصقل نفسه (مبارك، د.ت: ٧٢/٢). وهذه القصائد التي تُعدُّ من فرائد الشعر العربي تدلُّ على الابتكار والابتداع عنده فهو لا يكرر ما سبق اليه الشعراء وأنما تتفجر بعقريته عن معانٍ طريفة تشوّق الاذواق والعقول (مبارك، د.ت: ١٠٧/٢). وهذا يكشف لنا عن سر روعة تلك القصائد فهي قد نشأت عن احساس صادق وصادر بصورة مباشرة عن نفس الشاعر إذ هو لم يكن ليقلّد سائر الشعراء بل تحرّر من قيود التقليد وكتب عن حبه ورومانسيته بعقريته وبنفسه المبتدعة فملأت الروعة شعره. وهل في الشعراء من أكثر وجدانية واعذب رومانسية من الشريف الرضي.

يا قرب ما كذبت عيني عيناك	وعدّ لعينيك عندي ما وفيت به
يوم اللقاء فكان الفضل للحاكي	حكمت لحاظك ما في الريم من ملح
بما طوى عنك من أسماء قتلاك	كأن طرفك يوم الجزع يخبرنا
فما أمرك في قلبي وأحلاك	انت النعيم لقلبي والعذاب له
لولا الرقيب لقد بلّغتها فاك	عندي رسائل شوقٍ لست أذكرها

(الرضي، ١٩٩٩: ١٨٦/٢)

خصائص رومانسية الشريف الرضي

اتّخذت رومانسية الشريف الرضي طابعاً ابتداعياً وهو أنه لم يقلّد اي رومانسي غربي او عربي في احساسه الرومانسية بل هي نابغة عن ذاته الشاعرة وروحه الأدبية المبدعة. اتّسمت كذلك عاطفته بالعمق والإخلاص للمحبوب وهي أيضاً من ميزات الرومانسي المعاصر لكن الكثير من الرومانسيين المعاصرين لم يتقيدوا بها.

إنّ الشريف الرضي كان مزيجاً من احساس مختلفه فهو في رومانسيته لم ينس نصيبه من الدنيا ولم يغرق في رومانسيته تماماً ولم ينس مجتمعه وعقيدته والكرم في الخلق وغيرها من الصفات الحميدة. كما فعل الكثير من الشعراء الرومانسيين المعاصرين إذ اسرفوا في التشاؤم والأنانية وطرحوا مسائل مجتمعهم جانباً.

إنّ الشريف الرضي رومانسي بذاته، فهو رومانسي في كل تعابيره، ورومانسيته ذاتية لا يستطيع أن يفارقها فلو فارقت رومانسيته لفارقه شعره ولنضب ماؤه لكن الكثير من الشعراء

الرومانسيين المعاصرين تقلّبوا على غيرها من المذاهب مثل الرمزية والكلاسيكية وغيرهما ولم يكونوا كالرضي من هذا الجانب. سبقته في هذا المجال ولا غرو بذلك فالرومانسية في الأدب الأروبي أيضاً لا تختصّ بالأدب المعاصر فهي قديمة في الأدب الأروبي قدم الأساطير الإفريقية والأوذيسا، بل هي أقدم من ذلك أيضاً (عتيق، د.ت: ٢٤٧). وكما قلنا ان رومانسية الرضي كانت ذاتية.

النتائج

إنّ القارئ والسماع لشعر الشريف الرضي يرى أنّ الشعر الرضي ينطبع بمسحة من الرومانسية تصل غايتها في إخلاصه وتغنيه بالمحبوب، فشعره عاطفة وحبّ صادق وهو تمثيل لذاته العاشقة والصافية النبع، كما نرى الخيال الوثاب والمنسجم، والتطلع إلى الطبيعة ومظاهر الجمال فيها، والذاتية الحزينة والهجرة والإغتراب بوضوح في شعره خاصة في حجازياته التي نرى فيها كلّ هذه العناصر والأصول جنباً إلى جنب. ولا نقصد بالطبع بذلك أنّ كلّ عناصر الشعر الرضي تنطبق على نسختها الرومانسية الحديثة فالوحدة العضوية مثلاً أكثر تجلياً عند الشعراء الرومانسيين المعاصرين لكن انسجام أحاسيس وصور الرضي الشعرية تجعل من انسجام قصائده وحدة عضوية نسبية في شعره.

إنّ شعر الشريف الرضي يمثل نوعاً من الشعر الوجداني الخالص في الأدب العربي وهو كذلك ينطبق على كثير من أصول المذهب الرومانسي كما رأينا بالأخص قصائده الحجازيات فهي في قمة الأدب الوجداني والرومانسي وقد يكون الرضي قد جرى في جلّ قصائده على النظام القديم للقصيدة العربية ولكنّ الروح الرومانسية ظلّت تسيطر عليها ما جعلها شبيهةً بنزعات الرومانسيين الروحية وطموحاتهم الوجدانية.

وخلاصة القول أنّ الرضي كالرومانسيين في عواطفه واحاسيسه، وخياله، ففي شعره دور بارزٌ للخيال في إثارة العواطف كما في شعرهم. وكذلك تتسم عاطفة الحبّ في شعره بالحزن، كما أنّ الغربة والإغتراب بارزة في شعره، والطبيعة أيضاً حية في شعره تتكلم وتشعر كما رأينا. وهذه كلّها من اصول المذهب الرومانسي تجلّت بدرجات مختلفة من النضج او عدمه، ومن الظهور والخفاء، في الشعر الشريف الرضي.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. أدونيس (٢٠٠٦). *الثابت والمتحول*. ط٩، بيروت: دار الساقي.
٢. الأصغر، عبد الرزاق (١٩٩٩). *المذاهب الأدبية لدى الغرب*. دمشق: اتحاد كتاب العرب.
٣. أبوالشباب، واصف (١٩٨٨). *القديم والجديد في الشعر العربي الحديث*. بيروت: دار النهضة العربية.
٤. أبوعلوي، حسن محمود (١٩٨٦). *الشريف الرضي*. بيروت: مؤسسة الوفاء.
٥. حسين، طه (دون تا). *حديث الأربعاء*. ط١٤، القاهرة: دار المعارف.
٦. خفاجي، محمد عبدالمعتم (١٩٩٩). *مدارس النقد الأدبي الحديث*. ط٢، بيروت: الدار المصرية اللبنانية.
٧. السيدجاسم، عزيز (دون تا). *الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي*. بيروت: دار الأندلس.
٨. الرازي، زيدالدين محمد (٢٠٠١). بيروت: مؤسسة الرسالة.
٩. رضوان، محمد (٢٠٠٤). *إبراهيم ناجي شاعر الأطلال*. دمشق: القاهرة: دار الكتاب العربي.
١٠. الرضي، الشريف (١٩٩٩). *الديوان*. بيروت: دار القلم.
١١. العتيق، عبدالعزيز (دون تا). *في النقد الأدبي*. بيروت: دار النهضة العربية.
١٢. الفاخوري، حنا (١٣٨٢هـ). *الجامع في تاريخ الأدب العربي*. ط٢، قم: ذوي القربى.
١٣. القصاب، وليد (٢٠٠٥). *مذاهب الفن*. بيروت: مؤسسة الرسالة.
١٤. ضيف، شوقي (دون تا). *الفن ومذاهبه في الشعر العربي*. القاهرة: دار المعارف.
١٥. _____ (١٤٢٨ق). *عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية، العراق، إيران)*. قم: ذوي القربى.
١٦. عابدين، نزار (١٩٩٩). *الغزل في الأدب العربي ملاح وشعراء*. دمشق: الأهالي.
١٧. عمران، عبداللطيف (٢٠٠٠). *شعر الشريف الرضي ومنطلقاته الفكرية*. دمشق: دار الينايع.
١٨. غنيمي هلال، محمد (دون تا). *الأدب المقارن*. القاهرة: دار نهضة مصر.
١٩. غنيمي هلال، محمد (دون تا). *الرومانتيكية*. القاهرة: دار نهضة مصر.
٢٠. مبارك، زكي (دون تا). *عبقريّة الشريف الرضي*. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
٢١. نور الدين، حسن جعفر (١٩٩٠). *الشريف الرضي*. بيروت: دار الكتب العلمية.